# الأسباب التي تعود إلى طبيعة الفتوحات الإسلامية

## أولاً: السياسة المتبعة في الفتوحات الإسلامية:

كانت الخلافة الراشدة تتخذ سياسة ترمز إلى تحقيق هدفين اثنين في آن واحد.

**الهدف الأول**: تأمين حدود الدولة الإسلامية من المخاطر التي تهددها من قبل الدولة الفارسية الممتدة إلى شمال الجزيرة ومن الدولة الرومية التي تهدد أطراف الجزيرة من الشمال والغرب في أراضي الشام وفلسطين ومصر، فكانت كل واحدة منهما تمثل خطراً حقيقياً للمسلمين، وكان هذا هاجساً يدعو إلى الخوف. لأجل هذا كان لا بد من اتخاذ خطوات قوية لدرء الخطر المحدق، وعلى هذا أصدر الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه أوامره للجيوش الإسلامية المنتصرة ضد المرتدين داخل الجزيرة لكي تتوجه نحو العراق الخاضع للسيطرة الفارسية، ونحو الشام الخاضع للسيطرة الرومية، فخاضت الجيوش الإسلامية معارك فاصلة وضعت حداً لطغيان الدولتين في المرحلة الأولى، حتى تمكنت الخلافة الراشدة من إزالة كل المخاوف والتهديدات ضد الإسلام لأنهم قطعوا الشر من منبته.

**الهدف الثاني**: نشر الإسلام في الشعوب المجاورة.

كانت جيوش الخلافة تقارع قوى الكفر وتجاهد في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا ورفع راية التوحيد في ربوع العالمين خفاقة عالية، واستخدمت القوة عندما احتاجت إليها لتحقيق هدف سام وتحقق الهدف بحول الله وقوته، وبدد نور الإسلام ظلمات الكفر في أنحاء العراق والفارس والشام وفلسطين ومصر وما جاور الجزيرة العربية من بلاد آسيا. حتى تحولت

تلك المناطق من الكفر إلى الإسلام أي أصبحت من ديار الإسلام كما تعلم. إن خوض معارك ضد الفرس والروم في وقت واحد يتطلب جهوداً مضنية وحشد أكبر قوة من الناحية العسكرية من حيث السلاح والتموين وتوفير ما يحتاج إليه مثل ذلك الجيش، ولم تكن تلك المواجهة أمراً هيناً يتوقع الحسم فيه بسهولة، ولذلك كان الخلفاء الراشدون يدركون الموقف كما هو كل الإدراك وكانوا يعلمون أن حشد الطاقات أمر له وزنه وقيمته فلا داعي إذا لبعثرة الجهود وتبديد الطاقات، بل يجب أن تتوجه الأمة إلى ساحات المعارك دفاعاً عن الحق وإزالة العقبات أمام الدعوة الإسلامية. انظر معي موقف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مبدأ حرب القادسية، لقد استنفر استنفاراً عاماً فلم فلم يجد أحداً من الناس إلا وجهه إلى القادسية وكتب عمر إلى الأمراء في ذي الحجة سنة ثلاث عشرة فقال: «لا تدعوا أحداً له سلاح أو فرس أو نجدة، ولا تدعوا رئيساً ولا ذا رأي وشرف وبسطة، ولا خطيباً ولا شاعراً إلا وجهتموه إلي»[1].

وكان كل انتصار يجنيه المسلمون يفرز تحدياً جديداً ومواجهة ساخنة تحدث بينهم وبين أعدائهم في المواقع التي تلي ساحات القتال فلم تتوقف المعارك ضد الروم حتى الدولة الأموية أيام عمر بن عبدالعزيز، كما أن الحروب ضد الفرس طوال خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه تقريباً، وظل ملكها «يزدجرد» هارباً لم ينته أمره إلا في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه عندما مات مختفياً هارباً من تعقب الجيش الإسلامي عام ٣١ هـ.

وتصور حجم المعارك كماً وكيفاً والمساحة التي غطتها من الجزيرة العربية إلى القارة الهندية شرقاً، ومن الجزيرة إلى الشام ومصر وأفريقيا، ومن الشام إلى أسوار قسطنطينية، فهذه المعارك والمواجهات الدموية لم تترك مجالاً للتفكير لغزو الحبشة أو إرسال دعاة إليها لدعم المسلمين هناك ولم يكن المسلمون يجدون الوقت الكافي ولم يكن باستطاعتهم تغيير وجهتهم وتشتيت جهودهم في

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير، المجلد الثاني، ص ٣٠٨، ط. الخامسة ١٤٠٥ هـ، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

وقت هم في أمس الحاجة إلى توفير القوة اللازمة لمواجهة المستجدات.

## ثانياً: البحرية الإسلامية:

من ناحية أخرى نعلم أن تأسيس البحرية الإسلامية وبناء أسطول بحري مناسب قد تأخر حتى خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه بعد تردد استمر طويلاً، لأن حاجة الجيش الإسلامي للأسطول البحري المقاتل لم تكن ملحة، لأن القوات البرية كانت العمود الفقري للفتوحات الإسلامية وتأمين الحدود الشرقية والشمالية كانت ضرورة بسبب وجود خطر حقيقي يتهدد الأمن والاستقرار للأمة، بينما الحدود الغربية أي جهة الحبشة لم يكن هناك ما يغض مضاجع المسلمين، إذاً لم يكن أمراً لازماً بناء قوة بحرية تغزو الحبشة ما دام لا يوجد خطر من جهتها لأن بناء القوة الإسلامية لم يكن عن فراغ وإنما الحاجة هي التي أوجدته في العصور المختلفة.

## ثالثاً: التغيرات الاقتصادية في الجزيرة العربية:

تحولت الجزيرة العربية من واحات وقرى صغيرة متناثرة في الصحراء تمزقها الحروب القبلية والغارات المستمرة لا تجمعها دولة ولا يوجهها حاكم، بل الفوضى العارمة كانت سيدة الموقف، وكانت في فقر مدقع، ولم تكن مركزاً اقتصادياً مرموقاً تمتد إليها الأعناق من الشعوب المجاورة بل كانت تعتمد في تجاربها وحياتها الاقتصادية بصفة عامة على الرحلات الموسمية.

كما أشار إليها القرآن الكريم بقول الله عز وجل: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾[1].

والحبشة كانت من المراكز التجارية الهامة لأهل مكة بالذات، حيث التبادل التجاري والرحلات البحرية التي تصل الشاطىء الغربي بالشاطىء

---

(١) سورة قريش.

الشرقي للبحر الأحمر، والنشاط التجاري وحسن العلاقة بين الحبشة وأهل مكة كما يشير إليه الطبري رحمه الله «وكانت أرض الحبشة متجراً لقريش يتجرون فيها يجدون فيها رفاغاً من الرزق وأمناً ومتجراً حسناً»[1].

ومعنى هذا أن الحبشة كانت من أهم الأسواق للجزيرة وخاصة منطقة الحجاز قبل الهجرة إلى المدينة وقبل البعثة النبوية الشريفة.

لقد تحولت الجزيرة العربية من الوضع الذي ذكرته بالأسطر السابقة إلى حالة مغايرة تماماً، وكأنها خلقت من جديد. تحولت إلى دوحة ترتوي من نبع الإسلام، إلى مجتمع صاغه الإسلام صياغته الخاصة إلى أمة عظيمة تتلقى التوجيهات الربانية من رسول الله ﷺ إلى مجتمع يتربى على يدي النبوة حتى أصبحت الجزيرة قلباً نابضاً تتجه إليها أنظار العالم وتدور في فلكها مئات من الشعوب والأقطار بعد أن منّ الله عليها بالإسلام ودخلت في دين الله أفواجاً في حياة رسول الله ﷺ والخلفاء الذين جاءوا بعده رضي الله عنهم.

فتبعاً لهذا الوضع الجديد تغير كل شيء في الجزيرة بما في ذلك المعيشة والحياة الاقتصادية برمتها، لقد توحدت أسواق الجزيرة بفعل الإسلام وانفتح بعضه على بعض بعد أن اختفت الحروب القبلية وثاراتها، ثم توسعت تلك الأسواق فشملت أراضي واسعة لم يكن باستطاعة أهل الجزيرة الوصول إليها قبل الإسلام وهي كل أرض خضعت لحكم الإسلام.

والفتوحات الإسلامية وما تتطلب إليها وما نتج عنها كان عاملاً مهماً أحدث تغييرات جذرية من الناحية الاقتصادية، فبسببها صارت الأموال تتدفق على الجزيرة العربية، فالزكاة والغنائم أصبحا مصدرين من مصادر التمويل للجهاد ومساعدة الفقراء والمحتاجين وعامل إنعاش للاقتصاد.

فالتاجر الذي كان يذهب إلى ما وراء البحار أو يخطط لقافلة ضخمة تضمن أمنه وسلامته في السنة مرة أو مرتين ويقطع مسافات طويلة لتأمين قوته

---

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبري، المجلد الأول، ص ٥٤٦، ط. الأولى عام ١٤٠٧ هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

وقوت عائلته، أو تنشيط تجارته بات في الوضع الجديد يجد ضرورات الحياة بعد الفتوحات الإسلامية بلا مشقة وبعد أن انفتحت أسواق أهم من أسواق الحبشة بكثير على مصراعيها حتى أصبحت الجزيرة مزدهرة من الناحية الاقتصادية فلإن كانت التجارة عاملاً حاسماً للعلاقات القديمة بين العرب والحبشة بسبب ما كانت الأخيرة تمثل من سوق خصب له منتجاته وسوق استهلاك يستوعب أصنافاً من بضائع العرب مثل الجلود المدبوغة فإن هذا العامل لم يعد ذا جدوى كبيرة، بالنسبة للعرب بعد الهجرة إلى المدينة والعصور التي تلتها، لأن التبدلات الأساسية التي طرأت على الاقتصاد والتجارة في أرض الجزيرة غيرت مجرى العلاقات بين الطرفين حيث لم يعد سوق الحبشة مغرياً يجذب التجار والأغنياء، كما أن الأسواق الجديدة للمسلمين أقل خطراً من عبور البحر إلى الشاطىء الغربي في وقت كانت السفن بدائية غير متطورة مثلما هي عليه الآن، فلإن كانت الحبشة سابقاً تمثل بالنسبة للعرب منطقة غنية، فإن العالم الجديد والخارطة السياسية الجديدة التي تكونت بعد الفتوحات الهائلة أنست تجار العرب المسلمين الحبشة وغناها، فكادت الصلة تنقطع، وهذا عامل يضعف الاتصال بالحبشة ويضعف انتشار الإسلام بالحبشة لأن تجار المسلمين لم يكونوا أقل أهمية من الفاتحين العسكريين لأنهم رسل هداية بالتزامهم الخلقي والعملي لأحكام هذا الدين. وعلى كل فإن العوامل المذكورة المتصلة بالفتوحات الإسلامية ونتائجها قد أصابت العلاقات بين الجزيرة والحبشة بركود وشلل شبه كامل.